

حصون خيبر ساحة المعركة الفاصلة مع اليهود



منظر عام لجانب من حصون خيبر

تحقيق: أحمد الحسيني

ما إن نذكر حصون خيبر في الحجاز، حتى نتذكر التاريخ والتحوّلات السياسية التي طرأت في شبه الجزيرة العربية بعد انتصار المسلمين على اليهود الذين نقضوا العهد وتآمروا على النبي ﷺ، وحاولوا مع المشركين القضاء على الدين الحنيف. وقد انقلب ميزان القوى لصالح المسلمين بعد فتح مكة، هذا الفتح الذي مهد له دكُ حصون خيبر بقيادة رسول الله ﷺ، وتحقيق الانتصار على يد أمير المؤمنين ﷺ بإجماع كلِّ المؤرخين.

ومنطقة خيبر عبارة عن منخفض واقع بين حافتي حرة بركانية اشتهرت بنخيلها الممتاز، وبأرضها الخصبة التي غدتها الينابيع والعيون الكبيرة والصغيرة دائمة الجريان، والتي تُستغل في سقي واحات النخيل، منها: عين اللجيجة، وعين البركة، وعين علي. تبلغ المساحة الإدارية لمحافظة خيبر ٢٦٠ كيلومتراً تقريباً، وهي تشمل -إلى مدينة خيبر- مُدناً صغيرة تتسع باستمرار، أهمها: القاعدة (الشريف)، ويبلغ عدد سكان المحافظة أكثر من ٥٨ ألف نسمة. هذا وتعدُّ محافظة خيبر من أكبر الواحات في زراعة النخيل، ويُعدّ

خيبر اليوم محافظة إدارية تابعة للمدينة المنورة، تقع إلى الشمال منها على بعد ١٧٠ كيلومتراً، بمحاذاة الطريق الدوليّة المؤدية إلى تبوك وبلاد الشام وتركيا. ترتفع عن سطح البحر ١١٧٣ متراً، وتعدّ محطة مهمّة للحجاج القادمين إلى المدينة من تلك البلاد، لكن ما يشدُّ الزائر إلى هذه المنطقة هو أطلال البلدة القديمة، أو ما يُسمّى محلياً بخيبر القديمة، أو «نخيل خيبر» كما يقول عامة الناس. يتكوّن سطح محافظة خيبر بصفة عامّة من الحرات الناشئة بفعل الثورات البركانية التي حدثت في عصور جيولوجية قديمة.

من العرب البائدة قبل الإسلام. كما ورد اسم خيبر ضمن المناطق التي استولى عليها الملك البابلي «نابونيد» وكانت تابعة لمملكه، وذلك خلال الفترة من (٥٥٥ إلى ٥٣٩ قبل الميلاد)، حين غزاهم مع جماعة من اليهود الذين حلّوا محلّهم في سُكنى خيبر، وفي بعض النواحي المجاورة في الجزيرة العربية مثل مدينة يثرب. ويرى فريق آخر أنّ هجرتهم إليها كانت زمن «نبوخذ نصر» الذي شردهم ودمّر هيكلهم في القرن السادس قبل الميلاد. وفي



أطلال بيوت الطين المحيطة بالحصون

مرحلة ثانية وصل اليهود إلى خيبر بعد دخول الرومان إلى بلاد الشام وتشيتهم لليهود في أنحاء متفرقة من العالم، ومنها بلاد الحجاز وذلك زمن «هيدريان» الإمبراطور الروماني. ومن المؤكّد أنّهم سكنوها في القرن الثاني الميلادي، ففي العام ١٣٨ للميلاد، دخلتها ثلاث قبائل يهودية هي: قريظة والنضير وقينقاع، وكان عدد نفوسهم بداية الإسلام يقارب العشرين ألفاً، بينهم عدد كبير من المقاتلين الأشداء.

حصون خيبر القديمة: عندما استوطن اليهود خيبر، أقاموا فيها حصوناً تحميهم من غارات الأعراب، ومن غارات مرتقبة من أعدائهم، فأقاموها في أعالي الجبال، وسط الصخور، وأحاطوها بالأحجار الصلبة، وأغلقوا منافذها بأبواب حديدية وخشبية يصعب قلعها، فكانت تلك الحصون أشبه بمستعمرة سكنية محصنة تحصيناً منيعاً، تسمح لهم الإقامة فيها على نحو آمن، وما زالت آثار تلك الحصون ماثلة إلى اليوم، وما زالت تحتفظ بأسمائها القديمة.

وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين، شطرٌ فيه خمسة حصون، وهي: حصن ناعم، حصن الصعب بن معاذ، حصن قلعة الزبير،

التمر ماضياً وحاضراً أهم إنتاجها الزراعي، وهو يلي تمر «هجر» من حيث الجودة، وقد امتدحه -مقتبساً من المثل: كحامل التمر إلى هجر- حسّان بن ثابت في قوله:

وإنّا ومن يهدي القصائد نحونا كمستبضع تمراً إلى أهل خيبر
وإلى جانب التمر تنتج مزارعها القمح والشعير والذرة وبعض الخضروات والفواكه، وتعمل النساء ببعض الحرف الشعبية كصناعة المتوجات الصوفية، والمرواح اليدوية.



واجهة إحدى قلاع «خيبر»

وتعدّ خيبر بلدةً سياحيةً نظراً لما تزخر به من المواقع الأثرية والحصون والقلاع القديمة، ويتخذ موقع خيبر الأثري أهمية تاريخية وبعداً معنوياً، لما جرى على أرضه من أحداث، حيث وقعت الغزوة المشهورة، وفيه الكثير من الحصون وبيوت الطين القديمة.

خيبر في التاريخ

خيبر لغةً: يرى بعض الإخباريين العرب، كالحموي والبكري، أنّ خيبر لفظ عبراني معناه الحصن، ورأى آخرون أنّ التسمية نسبة إلى رجل اسمه «خيبر بن قانيه»، كان أول من استقر فيها. وورد في (لسان العرب) لابن منظور: «الخَيْرُ: أن تزرع على التّصف أو الثلث من هذا وهي المُخَابِرَةُ واشتقت من خَيْرٍ، لأنّها أول ما أُقِطِعَتْ كذلك؛ والمُخَابِرَةُ المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض وهو الخَيْرُ أيضاً... وقيل هو من الخَبَارِ الأرض اللينة.

ويرى بعض المستشرقين أنّ كلمة «خيبر» عبرانية الأصل، معناها الطائفة والجماعة، في حين يرى قسم آخر منهم أنّ معناها الحصن والمعسكر، وقيل إنّ معناها «الكيبوتس» أو المستعمرة.

المستوطنون الأوائل: يُعتدّ أنّ أول من سكن خيبر هم العماليق



واحد من بساتين النخيل التي تشتهر بها منطقة خيبر

حصن أبي، حصن النزار، والحصون الثلاثة الأولى تقع في منطقة يقال لها (النطاة)، وأما الحصنان الآخران فيقعان في منطقة تسمى بالشق.

أما الشطر الثاني ويُعرف بالكتيبة، ففيه ثلاثة حصون فقط: حصن القموص أو حصن بني أبي الحقيق، حصن الوطيح، حصن السلام.

أما مساجدها القديمة - بعد فتح خيبر - فمسجد رسول الله ﷺ: وهو المكان الذي صلى فيه النبي الأكرم ﷺ طوال مقامه بخيبر، ولهذا المسجد رحاب واسعة وفيه الصخرة التي صلى عليها النبي ﷺ، وكان المسلمون يصلون فيه صلاة الأعياد.

ومسجد علي ﷺ: ما زال ماثلاً يصل في تحت الحصن الذي فتحه الإمام ﷺ، والمسلمون يزورونه.

وفي خيبر مقابر شهداء غزوة خيبر، وتقع على بُعد ما يقارب خمسة كيلومترات على الطريق المؤدي إلى الصفق الأحمر. وهناك كثير من الآثار في منطقة خيبر الأثرية وبالقرب منها، وبعضها يشبه القرى، ولكن لا تُعرف أسماء كثير منها.

غزوة خيبر

كانت حصون خيبر من أعظم وأكبر التجمعات اليهودية في الجزيرة، وقد تابع يهود خيبر بقلق بالغ أبناء مواجهة الرسول مع يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وتأثروا بما أصابهم، وتعاطفوا معهم حتى صارت حصونهم ملجأ للكثير من اليهود، مما حوّلها مع الأيام إلى قاعدة لمن يتربصون الدوائر بالنبي وآله ومن والاه، وصارت أعظم خطر يهدد الإسلام. ويُقال إن يهود خيبر جندوا عشرة آلاف مقاتل يتم استعراضهم يومياً، وقدّروا أنهم بهذه العدة والعدد سيكونون أول من يلحق هزيمة ساحقة بالمسلمين.

وبعد أن فتح الله على نبيه ﷺ في صلح الحديبية ذلك الفتح المبين، وحقق انتصاره السياسي، وأذعنت قريش لمكانته وهي عدوته اللدودة، واعترفت بحقه باستقطاب العرب حوله،

عندئذٍ قدّر النبي ﷺ أن الفرصة ملائمة لمواجهة أخطر وأقوى ما تبقى من خصومه؛ وهم يهود خيبر. وبعد إتمام الاستعدادات وفي شهر صفر من السنة السابعة للهجرة، زحف جيش المسلمين - وقوامه ١٤٠٠ راجل ومائتا فارس - نحو خيبر ودخلوها عن طريق مرحب [إسم الطريق]، وفي الطريق بلغهم أن قبائل غطفان الكبيرة قد تحالفت مع اليهود على حربهم مقابل تمر خيبر لسنة، غير أنها خافت بعدئذٍ عواقب أمرها، فاجتنبت حمايتها لهم.

الإقتراب من خيبر

ذكر ابن إسحاق بإسناده، عن بعض من شهد المعركة أنه قال:



النوافذ على جانبي الممر تطلان على داخل الحصن وخارجه

«خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر حتى إذا كنا قريباً منها وأشرّفنا عليها، قال رسول الله ﷺ: قفوا، فوقف الناس، فقال: اللهم ربّ السماوات السبع وما أظللن، وربّ الأرضين السبع وما أفللن، وربّ الشياطين وما أضللن، إنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرّ هذه القرية، وشرّ أهلها، وشرّ ما فيها.. أقدموا باسم الله».

وصل الجيش الإسلامي إلى خيبر ليلاً، فعسكروا حولها، فلمّا طلعت الشمس، وأصبح اليهود، فتحوا حصونهم وغدوا إلى

من الحرّ والبرد بعد ذلك أبداً، فعقد عليه السلام للإمام عليه السلام ودفع الرّاية إليه، وقال له: «قاتل ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك».

فقال الإمام عليه السلام: «يا رسول الله، علام أقاتلهم؟» فقال عليه السلام: «على أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك حقنوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عزّ وجلّ».

وبهذه المناسبة نظم حسّان بن ثابت قصيدته المعروفة، التي يقول في مطلعها:

وكان عليّ أرمداً العين يتغي
دواءً فلما لم يحسّ مداويا
شفاه رسول الله منه بتفلة
فبورك مرقياً وبورك راقياً



شيدت الحصون في أعالي الجبال ووسط الصخور الصلبة

خروج أمير المؤمنين عليه السلام

قال سلمة بن الأكوع: فخرج [الإمام عليه السلام] والله يهرول وأنا خلفه، نتبع أثره، حتى ركز رايته تحت الحصن، فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن، فقال: من أنت؟ قال: «أنا عليّ بن أبي طالب»، فقال اليهودي لبني قومه: غلبتم وحقّ موسى.

وقال ابن الأثير: فنهض [أي الإمام عليه السلام] بالرّاية وعليه حُلّة حمراء، فأتى خيبر فأشرف عليه رجل من اليهود، فقال: من أنت؟ قال: أنا عليّ بن أبي طالب. فقال اليهودي: غلبتم يا معشر اليهود! وخرج إليه أهل الحصن، وكان أول من خرج إليه أخ مَرْحَب فتضاربا فقتله الإمام عليه السلام، وانهمز اليهود إلى الحصن. فلما علم مَرْحَب بمقتل أخيه نزل مسرعاً وقد لبس درعين وتقلد بسيفين واعتمّ بعمامتين، ولبس فوقهما مغفراً وحجراً قد أثقبه قدر البيضة لعينه، ومعه رمح لسانه ثلاثة أشبار، وهو يرتجز ويقول:

أعمالهم، فلما نظروا إلى رسول الله عليه السلام، قالوا: محمّد والخميس -أي الجيش- وولّوا هاربين إلى حصونهم.

فقال رسول الله عليه السلام: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»، فحاصرهم بضع عشرة ليلة، وكان أول ما افتتح من حصونهم حصن ناعم ثم القموص، ثم حصن الصعب بن معاذ، ثم الوطيح والسّلام، وكان آخر حصون خيبر افتتاحاً، وقيل إن «القموص» -أعظم حصون خيبر وأمنعها- هو الذي استعصى على المسلمين، ففتحه أمير المؤمنين عليه السلام بمفرده، وقيل إنّه حصن «ناعم»، ومن بعده تهاوت بقية الحصون واستسلم مقاتلوها.



إحدى عيون الماء الكثيرة المحيطة بالحصون

إعطاء الرّاية لعليّ عليه السلام

بعث رسول الله عليه السلام أحد الصحابة برايته -وكانت بيضاء- لفتح خيبر، ولكن رجع هذا ولم يكُ فتح وقد جهد. ثم بعث عليه السلام في الغد رجلاً آخر برايته ومعه الناس، فلم يلبثوا أن هزموا، وجاؤوا يبيّئون حامل رايتهم وهو يبيّئهم.

وخرجت كتائب اليهود يتقدّمهم ياسر أو ناشر -أخ مَرْحَب- فكشفت الأنصار حتى انتهوا إلى رسول الله عليه السلام، فاشتد ذلك على رسول الله، وقال عليه السلام: «لأعطين الرّاية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، كزار غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه»، فتناولت الأعناق لترى لمن يعطي الرّاية، ورجا كلّ واحد من قريش أن يكون صاحب الرّاية.

وكان الإمام عليه السلام أزمَد العين، فدعاه عليه السلام، فقيل له: إنّه يشتكي عينه، فلما جاء الإمام عليه السلام أخذ عليه السلام من ماء فيه، وذلك عينه، فبرّئتا حتى كأن لم يكن بهما وجع.

ثم قال عليه السلام: «اللّهم اكفه الحرّ والبرد»، فما اشتكى من عينيه، ولا



إطلالة من داخل إحدى القلاع على القلعة المجاورة

وقد فُتِحَ به ورائي أربعين ذراعاً - لم تحس أعضاءي - بقوة جسديّة وحركة غريزيّة بشريّة، ولكنّي أيدت بقوة ملكوتيّة، ونفسٍ بنور ربّها مضيئة، وأنا من أحمد ﷺ كالصّوّء من الصّوّء، لو تظاهرت العربُ على قتالي لما وليت، ولو أردتُ أن أنتهز فرصةً من رقابها لما بقيتُ، ومن لم يبالٍ متى حتفه عليه ساقط، كان جنانه في الملمات رابطاً.

قول رسول الله ﷺ لعليّ ﷺ

قال الإمام عليّ ﷺ: «قال لي رسول الله ﷺ يوم فُتِحَتْ خيبر: لولا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى ابن مريم، لقلْتُ فيك اليوم مقالاً بحيث لا تمرّ على ملأ من المسلمين إلّا أخذوا من تراب رجلِكِ وفضل طهورك؛ يستشفون به...» وأنت أوّل داخلٍ في الجنّة من أمتي، وإن شيعتك على منابرٍ من نور، رواء مروثون مبيضة وجوههم حولي...» وإن الله عزّ وجلّ أمرني أن أبشرك أنّك أنت وعترتك في الجنّة، وعدوك في النار، لا يرد عليّ الحوض مبعوض لك، ولا يغيب عنه محبّ لك.

قال عليّ ﷺ: «فخررتُ ساجداً لله تعالى وحمدتُه على ما أنعمه عليّ من الإسلام والقرآن، وحبّيتني إلى خاتم النبيّين وسيّد المرسلين ﷺ».

فرحتان في وقتٍ واحد

ولما افتتح رسول الله ﷺ خيبر أتاه البشير بقدم جعفر بن أبي طالب وأصحابه من الحبشة إلى المدينة، فقال: «ما أدري بأيّهما أنا أسرُّ، بفتح خيبر أم بقدم جعفر؟»، وروي عن الإمام الباقر ﷺ: «إنّ رسول الله ﷺ لما استقبل جعفرأ التزمه ثمّ قبل بين عينيه».

قد علمت خيبرُ أيّ مزحَبٍ
أطعنُ أحياناً وحيناً أضربُ
فردّ عليّ ﷺ عليه، وقال:

أنا الذي سمّيتني أمي حيدرةً
أكيلكم بالسيف كيل السندرة
ليثٌ بغاباتٍ شديد قسورة

[وحيدة: اسم من أسماء الأسد]، فاختلفا ضربتين، فبدره الإمام عليّ ﷺ فضربه فقد الحجر والمغفر ورأسه، حتّى وقع السيف في أضراسه فقتله. فكبر الإمام عليّ ﷺ وكبر معه المسلمون، فانهزم اليهود إلى داخل الحصن وأغلقوا باب الحصن عليهم، وكان الحصن مُخندقاً حوله، فتمكّن الإمام عليّ ﷺ من الوصول إلى باب الحصن، فعالجه وقلعه، وأخذ باب الحصن الكبير العظيم الذي طوله أربعون ذراعاً، فجعله جسراً فعبه المسلمون الخندق، وظفروا بالحصن وبمن فيه.

قال الإمام الباقر ﷺ: «انتهى - أي عليّ ﷺ - إلى باب الحصن، وقد أُغلق في وجهه، فاجتذبه اجتذاباً وتترس به، ثمّ حمّله على ظهره، واقتحم الحصن اقتحاماً، واقتحم المسلمون والباب على ظهره، فوالله ما لقي عليّ من الناس تحت الباب أشدّ مما لقي من الباب، ثمّ رمى بالباب رمياً».



صورة لمدينة خيبر المستحدثة

وقد حاول حمل هذا الباب أربعون رجلاً فلم يتمكّنوا، حتّى تكاملوا سبعين فتمّ لهم حمّله، قال ابن أبي الحديد المعتزلي في ذلك:

يا قالع الباب التي عن هزّها
عجزتُ أكفُّ أربعون وأربع
فلما فرغ عليّ من فتح خيبر، قال: «والله ما قلعتُ باب خيبر